في نشأة البلاغة العربية

الدكتور/ أحمد عقون
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
جامعة العقيد الحاج لخضر -باتنة-

الملخص :

هذا المقال يتناول مراحل نشوء البلاغة العربية، منذ الجاهلية إلى العصر العباسي؛ إذ يوضح أنها بدأت مستندة إلى ملاحظات الأدباء الجاهليين، وتدرجت شيئا فشيئا لترسي بعض قواعد الكتابة الأصيلة في نهاية العصر الجاهلي .

ويشير إلى أن هذه الملاحظات توسعت في العصر الإسلامي مستفيدة مما وضعه القرآن الكريم والحديث الشريف من قواعد أدبيّة فريدة.

وأنها ازدادت توسعا في عصر بني أمية من جراء تحضر العرب واستقرارهم في المدن، ورقيّ حياتهم العقلية .

وأن هذه الملاحظات اتسعت اتساعا كبيرا في العصر العباسي، بحكم تطور الشعر والنثر والاستغراق في الحضارة والإلمام بالثقافات الأجنبية، كل ذلك، لينفتح مجال أمام كبار المؤلفين لإرساء قواعد النظريات البلاغية خاصة واللغوية والنقدية عامّة .

نص المقال :

إن البلاغة العربية مرت بفترات زمنية، لم تخرج عن نطاق الانطباعية الخالصة وأنه ما إن توسعت آفاق الدولة الإسلامية وترامت أطرافها وامتزج العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى حتى شرع العلماء المسلمون من مختلف الاختصاصات في تقعيد قواعد العلوم عامة، وعلمي البلاغة واللغة خاصة.

ففي العصر الجاهلي، تبوأ العرب مكانة رفيعة من البلاغة والبيان، ونظرا إلى أن القرآن الكريم هو المصدر الأهم على الإطلاق في تصوير حياة العرب الجاهلية، فإن من آياته التي وصفت بلاغتهم وبيانهم، قوله تعالى:﴿ الرحمن، علم

القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان﴾ [1] وقوله في قوة حجاجهم وجدلهم : " فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد" [2] وقوله:﴿ وقالوا آلهتنا خير، أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا، بل هم قوم خصمون﴾ [3] ومن الأدلة القاطعة على حذق العرب في مجال البلاغة والبيان أن كانت معجزة سيدنا محمد وبرهانه دعاءَ بلغاءِ العرب وفصائحهم إلى معارضة القرآن في بلاغته الفائقة، رغم أنه يعلم علم اليقين مدى ما أتاه العرب من الفصاحة والقدرة على حوك الكلام، ومدى معرفتهم بإمكانات الألفاظ والمعاني، وما ينتج عنها من جودة الإفهام والتبليغ والتأثير في السامع. ومما نقلته إلينا المصادر القديمة أن الوليد بن المغيرة أحد ألد أعداء الإسلام، لما سمع القرآن يتلى، قال: " والله لقد سمعت من محمد كلاما، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق"[4] وفي هذا القول دليل قاطع على بلاغة القرآن،واعتراف صريح ببيانه.

وفي معرض كلام الجاحظ عن رأي العرب في البلاغة والفصاحة، أنهم يصورون شعرهم وخطابتهم ببرود العضب الموشاة وبالحلل و الديباج وأشباه ذلك[5] ويصورون خطباءهم بأنهم مصاقعُ لسن، لوذعيون، يرمون بالكلام القاطع.

ويُروى أن الرسول الكريم، استمع إلى بعض خطبائهم، فقال: "إن من البيان لسحرا"[6] .

وقد كان بلغاء العرب من الخطباء والشعراء لا يقبلون كل ما يرد على خواطرهم، وإنما ينقحون ويجوِّدون ويجيلون الفكر، ويعيدون النظر إلى أن يظفروا بأعمال جيدة، فيها المعنى الصائب واللفظ المتخير ما يَرْفعها إلى الدرجات العليا من البلاغة والفصاحة.

وفي كتاب البيان والتبيين، كثيرا ما وقف الجاحظ منوها بمنهجهم في نظم الشعر وتحبير الخطب وتنميقها. ومما ورد عنه في أمر نظم القصائد، أن من شعرائهم " من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا(كاملا) وزمنا طويلا يردد فيها نظره، ويُجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله زماما على رأيه ورأيه عيارا على شعره... وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات، ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعرا مفلقا"[7] .

ومن أخبار النابغة الذبياني في الأغاني، أن الشعراء الناشئين كانوا يحكّمونه في نظمهم، فمن أشاد به ورفعه، طارت شهرته في الآفاق. وقد كان في أثناء تحكيمه يبدي بعض الملاحظات على أساليب الشعراء و معانيهم. ويُرْوى أنه في بعض محاكماته، فضل الأعشى على حسان بن ثابت وفضل الخنساء على بنات جنسها، مما جعل حسان يثور عليه ، ويقول له : أنا والله أشعر منك ، فيقول له النابغة ، حيث تقول ماذا ، فيقول : حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء[8] وابني محرق[9] فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما.

فقال له النابغة " إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، وفي رواية أخرى، فقال له: إنك قلت الجفنات، فقللت العدد، ولو قلت الجفان لكان أكثر، وقلت يلمعن في الضحى، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا، وقلت يقطرن من نجدة دما، فدللت على قلة القتل، ولو قلت يجرين لكان أكثر، لانصباب الدم، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسرا منقطعا"[10] .

وننتقل إلى مدرسة زهير لنقف عندها قليلا، وهي مدرسة كانت تجمع إلى الشعر روايته، وتبدأ بأوس بن حجر التميمي الذي لقن زهيرا الشعر، ولقنه زهير بدوره ابنه كعب و الحطيئة، ولقنه الحطيئة هدبة بن الخشرم العذري، ولقنه هدبة جميل بن معمر، وعنه تلقنه كثير.[11]

وهذه المدرسة لا تنظم الشعر عفو الخاطر وإنما كان أصحابها يتأنون فيما ينظمون، إذ لا يُخرجون قصائدهم إلا بعد تنقيحها وتصفيتها وتجويدها،وقد وصف الأصمعي أصحابها فقال إن: " زهير بن أبي سلمى والحطيئة و أشباههما عبيد الشعر " [12].

وفي الأغاني يورد الأصفهاني أن الحطيئة أتى كعبا وقال له:

" قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم،وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعرًا تذكر فيه نفسك، وتضعني موضعا بعدك فقال كعب[13]:

فمن للقوافي شانها من يحوكها إذا ما ثوى كعب وفوز جرول[14]

كفيتك لا تلقى من الناس واحدا تنخل منها مثلها نتنخل[15]

نثقفها حتى تلين متونها فيقصر عنها كل ما يتمثل[16]

والشاعر من خلال هذه الأبيات، يفتخر بنفسه وبالحطيئة معلنا أنهما متفوقان على من عداهما في نظم الشعر وقرضه، ذلك لأنهما يجوّدان شعرهما بالوقوف عنده والنظر فيه وإخراجه مستويا متناسقا أشد ما يكون الاستواء والتنسيق، أو ليسا خريجي مدرسة عبيد الشعر؟

ويأتي العصر الإسلامي لينزل القرآن الكريم، الكلام الذي ألقى الله عليه المحبّة وجمع له بين الجلال والحلاوة، وبين حسن البلاغة في إيجاز، بل هو في مجمله، معجزة مطلقة من حيث المعاني والصياغة والبيان. أما قوله "صلى الله عليه وسلم" فإن صحيحه محفوف بالعصمة ومغشى بالقبول، وجامع بين الإفهام وقلة ا لكلام، وهو صميم البلاغة، خاصة إذا علمنا أن الرسول الكريم، يقصد به على وجه الخصوص تعليم الدين الإسلامي الحنيف والتربية والتوعية والتوجيه إلى سواء ا لسبيل. وفي قوله(ص) يقول الجاحظ: " لم ينطق إلا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة .....وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد ا لكلام مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته...ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا و لا أ قصد لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم" [17]

وفي السيرة العطرة ما يدل على أن الرسول الكريم، كان يعنى عناية شديدة بتخيير ألفاظه، ومما أثر عنه، أنه قال : " لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل، لقست نفسي "حتى لا يصف نفسه بالخبث[18]. وربما استبدل كلمة الخبث باللقس ، لأن الخبث من معانيها الحرام.

ويتأثر الخلفاء الراشدون ببلاغة الرسول(ص)؛ إذ بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به من بلاغة وفصاحة، كانوا يستضيئون في خطبهم، بخطابة الرسول الكريم وبآيات الذكر الحكيم. ومما يدل على دقة ملاحظاتهم، ما يروى عن أبي بكر- رضي الله عنه- من أنه رأى في يد رجل ثوبا، فظن أنه للبيع، فقال له: أتبيع الثوب؟ فأجابه لا. عافاك الله، فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر القول، إذ قد يظن أن

النفــي مســلط على مضمون الدعاء، فقال له :"لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل : "لا وعافاك الله"[19]، ومن بلاغة عمر بن الخطاب أنه يستطيع أن يخرج الضاد من أي شدقيه شاء[20]، أما بلا غة علي بن أبي طالب فحدث عنها ولا حرج.

ونمضــي إلــى عصــر بنــي أمية لنشير إلى أن في هذا العصر، كثرت الملاحظــات البيانــية، وهــي كثرة كان سببها بواعث كثيرة، منها،تحضر العرب واســتقرارهم فــي المدن، ورقي حياتهم العقلية. أضف إلى ذلك ما طرأ من نشوء المذاهــب الدينــية، فهــناك الخــوارج والشيعة والزبيريون والأمويون، وكان من أصــحاب الآراء الفقهية والكلامية المرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة ، وفي هذا الخضــم من الاختلافات في الرأي نما العقل العربي نموا واسعا، ومن الطبيعي أن يــنمو الــذوق البلاغــي والبياني، وأن تكثر الملاحظات المتعلقة بالصياغة والبيان والنقد.

ففي بلاغة الخطابة وبيانها، يشتهر من ولاة بني أمية في الخطابة السياسية أمــية زيــاد والحجاج ؛و في زياد، يقول الشعبي[21]: " ما سمعت متكلما على منبر قــط، تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلا زيادا فإنه كلما أكثر كــان أجــود كلاما" [22] وفي الحجاج، يقول مالك بن دينار " ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع به أهل العراق، وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج" [23]

ومــن الخطــباء الشيعيين زيد بن الحسين الذي كان يجذب الناس بحلاوة لســانه وســهولة منطقه[24]، وفي بلا غة خطابة الوعظ ، هناك من بلغ الغاية من روعة البيان وفي مقدمتهم غيلا ن الدمشقي، والحسن البصري، وواصل بن عطاء. وممــا قاله الجاحظ مشيدا ببلاغة واصل، إنه أسقط الراء من كلامه للغثته فيها، مع مــا أنتظم له من الطلاوة والجزالة[25] ومن طريف ما ساقه الجاحظ من ملاحظات الــناس عن عمران بن حطان قوله: " قول عمران" : " إن أول خطبة خطبتها عند زيــاد- أو عــند ابــن زياد- فأعجب بها الناس وشهدها عمى وأبي،ثم إني مررت بــبعض المجــالس، فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن " [26].

وينقل إلينا الجاحظ حواراً طريفا بين أبي الأسود الدؤلي وغلام كان يتقعر في كلامه، وقد لامه أبو الأسود لوما شديدا لإستعماله ألفاظا مفرطة في الغرابة[27]

وفي مجال الشعر كان هناك نشاط ملحوظ، يعود إلى تعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه، ذلك لأن الخلفاء والولاة والقواد و الأجواد، فتحوا أبوابهم أمام شعراء المدح، وخصصوا جوائز تزيد قيمتها وتنزل بقدر براعتهم في نظم شعر المدح. وهذا الأمر "هيأ لكي يتخير كل منهم معانيه وألفاظه، بحيث تصغى لها القلوب والأسماع، وتساق إليه الجوائز الضخمة، وأخذ الشعراء – بحكم استقرارهم في المدن – يلتقي بعضهم بعضا في المساجد والأندية والأسواق وعلى أبواب من يمدحونهم، وفي حضرتهم، فكثرت المحاورات- بينهم من جهة وبينهم وبين سامعيهم من جهة ثانية- في براعاتهم وفي بعض معانيهم وأساليبهم" [28]

ويبرع كل من الفرز دق وجرير في فن الهجاء القديم، ويصبح مناظرة واسعة في حقائق قيس وتميم عشيرتي الشاعرين، ويسير على نهجيهما غير قليل من الشعراء، وتعقد الاجتماعات في سوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة، ويتجمع الناس حول الشعراء المتبارين يصفقون،ويهتفون كلما مر بهم بيت نافذ الطعنة [29] .

ومن يطلع على أخبار جرير، الذي كان يهاجيه – فيما يقال- ثلاثة وأربعون شاعرا، فإنه يجد أن السبب في اشتباكه مع بعض الشعراء المعاصرين له،يعزى إلى تقبيحهم بعض قولهم، وعلى سبيل المثال ،لا الحصر، نسوق حادثة تهاجي جرير وعمر بن لجأ التميمي إذ لما سمعه جرير، ينشد أرجوزة في وصف إبله، قائلا:

قد وردت قبل إنى ضحائها وتفرس الحيات في خرشائها[30]

جرالعجوز الثني من ردائها.

قال له جرير ناقدا أياه، قائلا : كان أولى بك أن تقول "جر العروس" لا جر العجوز التي تلقي نفسها إلقاء من الخور والضعف،والتهب عمر من الغضب وهجاه، واشتد بينهما الهجاء [31] .

وكثيرا ما كان بعض المستمعين للشعراء أثناء إنشادهم، يبدون بعض ملاحظاتهم البلاغية والبيانية ومن ذلك ما يقال من أن ذا الرمة لما انشد إحدى قصائده في سوق الكناسة بالكوفة،وانتهى إلى قوله :

إذا غيّر النأي المحبين،لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح [32]

فصاح به ابن شبرمة : مشيرا إلى عدم استساغته للعبارة (لم يكد) فحث ذو الرمة ناقته باللجام كي تتأخر وهو يفكر، ثم أعاد إنشاد البيت قائلا :

إذا غيّر النأي المحبين،لم أجد رسيس الهوى من حب مية يبرح [33]

وفي الأغاني ، ورد أنه اجتمع النصيب و الكميت وذو الرمة فأنشدهما الكميتُ قصيدته (هل أنت عن طلب الأيفاع منقلب) حتى إذا بلغ منها إلى قوله:-

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة وإن تكامل فيها الأنس والشنب [34]

وفي الحين،نقده النصيب قائلا له، إنك باعدت في القول ، فما الأنس من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أسنانها شنب [35]

فانكسر الكميت[36] ، ولعل نصيبا يطلب من الكميت أن تكون كلماته متناسبة متوافقة، وهو ما عرف فيما بعد بمراعاة النظير، وفي هذا السياق ورد على ألسنة الرواة أن عمر بن لجأ، قال لأحد الشعراء أنا أشعر منك، قال: وبم ذاك؟ قال: لأني أقول البيت، وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه، وورد عن بعضهم ، أن شخصا قال لرؤبة بن العجاج: رأيتُ اليوم ابنك عُقبة ينشد شعرا له أعجبني، فقال رؤبة، نعم إنه يقول، و لكن ليس لشعره قران[37] أي ليس هناك شيء يقرن بين أبيات شعره، وأنه لا يضمها سياق واحد.

وفي الأغاني يورد الأصفهاني، أن ابن قيس الرقيات أنشد عبد الملك قصيدته البائية، ((ولما انتهى إلى قوله:

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

غضب الملك وقال له، قد قلت في مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت على وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغم وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي كالذهب في النضارة" [38] وهذه الملاحظة، كما يقول شوقي ضيف، لا شك أنها هي التي ألهمت قدامة في كتابه نقد الشعر، فكرة أن المديح ينبغي أن يكون بالفضائل النفسية لا بأوصاف الجسم وما يتصل بها من الحسن والبهاء والزينة[39] .

ونمضي إلى العصر العباسي، لنشير إلى اتساع الملاحظات البلاغية، بسبب تطور النثر والشعر والحياة العقلية والحضارية بصفة عامة فالنثر في هذا العصر قطع أشواطا في التطور، حيث ظهر منه النوع " العلمي الخالص واستوعب آثارا أجنبية كثيرة نقلت إليه، منها الأدبي، ومنها السياسي، ومنها الفلسفي" [40] وخير مثال في هذا الصدد ابن المقفع(ت 143هـ) الذي ترجم عن الفارسية غير قليل من الكتب التاريخية والأدبية والسياسية، منها كتاب كليلة ودمنة، وأجزاء من منطق أرسطاليس.

وقد اتسع مجال الترجمة بعده، لما تأسست دار الحكمة، وراح المترجمون ينقلون كتب الحضارات السابقة؛ اليونانية والفارسية والهندية وغيرها.

" ولا يلبث ابن المقفع أن يضع قاعدة مهمة لكل متكلم، أن يكون في فاتحة كلامه ما يشير إلى غرضه، وهو ما سماه فيما بعد أصحاب البديع باسم حسن الاستهلال، ويضيف إلى ذلك فكرة ثانية تتصل بأبيات الشعر إذ يقول إن خيرها ما دل صدره على قافيتها" [41] وهذا على ما يبدو ،هو ما سماه ابن المعتز باسم رد الأعجاز على ما تقدمها[42] ،وسمي فيما بعد رد الأعجاز على الصدور.

وقد كان كتّاب الدواوين، قد تحولوا بالدواوين العباسية إلى ما يشبه مدرسة نثرية كبيرة ،كما

كانوا يأخذون أنفسهم بالتثقيف ثقافة واسعة بكل ما ترجم من التراث الأجنبي ، وخاصة اليوناني،وكذلك كانوا يأخذون أنفسهم بالثقافة العربية الأصيلة، المتعلقة بتصاريف الكلام و وجوه استعماله، والتمييز بين جيده و رديئه، الأمر الذي جعل الجاحظ ينوه بهم حيث يقول :

" فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكُتّاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا " [43] وفي هذا القول نجد الجاحظ يوجه عنايته للفظ.

. و لقدرتهم على توليد المعاني وجدنا الجاحظ مرة ثانية ،يشيد بعنايتهم بها ،هم و نابهو الشعر ،دون أن ينسى أهمية اللفظ ، يقول :" رأيت عامتهم لا

يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة و المعاني المنتخبة و على الألفاظ العذبة و المخارج السهلة و الديباجة الكريمة و على الطبع المتمكن و على السبك الجيد و على كل كلامله ماء و رونق ، و على المعاني التي إذا صارت إلى الصدور .

عمرتها و أصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعاني ، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر "[44] .

وقد كان الكتاب يعيشون لأحسان الكتابة في أساليبها ومعانيها ، وهم لا يزالون يعيدون النظر في صفات البيان الحسن والبلاغة يشركهم في ذلك من تبوؤوا مناصب الوزارات مثل جعفر البركمي الذي بلغ الذروة من الفصاحة والبلاغة، وفيه يقول الجهشياري "كان جعفر بليغا كاتبا، وكان إذا وُقِّعَ نسخت توقيعاته وتدورست بلاغته "[45] ، وفيه يقول ثمامه بن اشرس : "كان جعفر بن يحي أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاما يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة،لاستغنى جعفر عن الإشارة ،كما استغنى عن الإعادة ....، [وقال] ما رأيت أحدا كان لايتحبس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد،ولا يلتمس التخلص إلى معنى تعصى عليه طلبه ، أشد اقتدارا ولا أقل تكلفا من جعفر بن يحي"[46] .

وقد سأله ثمامة، ما البيان؟ فأجابه بقوله " أن يكون الاسم يحيط بمعناك،ويجلي عن مغزاك، وتخرجه عن الشراكة ولاتستعين عليه بطول الفكرة والذي لا بد منه أن يكون سليما من التكلف بعيدا من الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل "[47]

وواضح أن جعفر يريد بالاسم اللفظ ، ويرى أنه من الضروري أن يحيط اللفظ بالمعنى ويحصره حصرا ، وأن يخرج عن الشراكة ، ويبرأ من التكلف والتعقيد ولا يظهر فيه التعمل والتصنع .

وجعفر هنا ليس سوى نموذج من الكتاب في هذا العصر، ومن يرد أن يلم بموضوع الاعتقاد بالكتابة الفنية فليعد إلى مظانها في مصادر العصر العباسي الأدبية والبلاغية واللغوية .

وإذا انتقلنا إلى شعراء هذا العصر، فإننا نجدهم أيضا يقطعون أشواطا من التطور متأثرين بحياتهم الحضارية والعقلية الجديدة؛ فهم ليسوا مثل الشعراء

الأمويين الذين لم يتنصلوا من تقاليد الشعر الجاهلي ، وإنما ساروا على طريقهم من حيث الموضوعات وهياكل القصائد ، وما ظهر من تجديد عندهم لم يعد حدود بعض المعاني. أما العباسيون فإنهم نزعوا في نظم الشعر منزعين ؛ منزعا يحتفظون فيه بالتقاليد الموروثة مع شيء من التطور الذي يملية رقيُ العقل العربي متأثرا بما طرأ من المعارف الأجنبية ، وبما دخل الحس العربي من تحضر ومن رقة الشعور ، وهذا المنزع كانوا يضطرون إليه اضطرارا عند عنايتهم بمديح الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء ، طلبا للمكافآت والجوائز . ويقابل هذا المنزع منزع آخر لم يكن يهتم بالمديح ، إنما كان يعنى بتصوير حياة الشعراء وشخصياتهم وأهوائهم وميولهم وطربهم وخمرهم وحبهم ، وقد بلغ الحد ببعضهم أن أهملوا ما عرف به العرب من العفة والوقار والارتفاع عن الدنايا، وأطلقوا لأنفسهم العنان في اللهو والجون[48]

وقد دفع التقاء المنزعين واستغلال الجديد للقديم الاستغلال الحي الخصب ، إلى نشاط الملاحظات البلاغية نشاطا واسعا ، إذ طفق الشعراء العباسيون في الموازنة بين معانيهم ومعاني القدامى ، وحاولوا أن يثبتوا تفوقهم أو على الأقل أن يبينوا بلوغهم درجة الأقدمين، وخير من يمثل هؤلاء بشار بن برد ، الذي يقول :- مازلت أروي في بيت أمرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي[49]

إذ شبه شيئين بشيئين، حتى صنعتْ :-

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ، ليل تهاوى كواكبه[50]

ولعل في هذا ، إشارة إلى أن الشاعر العباسي ، كان جاهدا على محاكاة الأقدمين في وسائلهم البلاغية من تشبيه وغيره ، وإن كان يتميز ، كما يقول شوقي ،" بفكره الدقيق ولطف مسالكه إلى المعاني والأخيلة"[51] ومن ذلك أيضا ، أن نجد بشارا يستمع إلى قول كثير :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين

فيقول والله ، لو جعلها عصا مخ أو عصا زبد ، لما أحسن ، فهو بهذا الوصف جعلها جافية خشنة، وقد أخذ بشار هذا المعنى وسواه تسوية جديدة ، في إحدى قصائده الغزلية ،و قال، ألا قال كما قلت :

و دعجاء المحاجر من معدّ كأن حديثها ثمر الجنان [52]

إذا قامت لمشيتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وبذلك أزاح عن المعنى جفوته وخشونته[53].

وفي مصادر الأدب أخبار عديدة تصور عناية الشعراء باختيار الألفاظ المناسبة والمعاني الملائمة،ومن ذلك ما يروى أن رجلا أنشد ابن هرمة بيته :

بالله ربك ، إن دخلت فقل لها هذا ابن هرمة قائما بالباب

فقال للرجل ما هكذا قلت ، أكنت أتصدّقُ أي: (أطلب الصدقة)، قال : فماذا؟

قال : واقفا، ثم قال له ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى[54] .

وتحدث محاورات كثيرة ، بين الشعراء عندما يجتمعون في نوادي أو مجالس ، يبدون فيها كثيرا من الملاحظات والآراء على المعاني من حيث غرابتها وغثاثتها ، ومن ذلك ما يُروى عن أبي نواس الذي أنشد مسلما قوله في الصبوح [54]

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا وأمله ديك الصباح صياحا

فقال له مسلم : قف عند هذا البيت ، لِمَ أمله ديك الصباح ، وهو يبشره فقال له أبو نواس ، فأنشدني أنت ، فأنشده مسلم :

عاصَى الشباب فراح غير مفنّد وأقام بين عزيمة وتجلد [55]

ـ فقال له أبو نواس ، ناقضت، ذكرت أنه راح، والرواح لا يكون إلا بانتقال من مكان إلى مكان، ثم قلت : (وأقام بين عزيمة وتجلد) فجعلته مقيما متنقلا ، وتشاغبا في ذلك [56].

ـ ومن الأمور التي كانوا يرفضونها ، حشد الألفاظ الغريبة ، ومن هؤلاء ابن مناذر ، الذي كان يسرف على نفسه في ذلك ، فقال له أبو العتاهية "أنت خارج عن طبقة المحدثين ، فإذا كنت تشبهت بالعجاج ورؤية ، فما لحقتهما، ولا أنت في طريقهما،وإن كنت تذهب مذهب المحدثين، فما صنعت شيئا ، أخبرني عن قولك : " ومن عاداك لاقى المرمريسا" [57] أخبرني عن المرمريس ما هو؟ فخجل ابن مناذر وما راجعه حرفا" [58]

ـ وقد كان أبو العتاهية ممن يختارون اللفظ السهل الخفيف المألوف، البعيد عن الجزالة والفخامة والرصانة ، فأنبرى له مسلم بن الوليد، يقول له : " والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك

لبيك إن الملك لديك.

لقلت في اليوم عشرة آلاف بيت، ولكنني أقول :

موفٍ على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل [59]

ـ والأمر في واقعه ليس سوى دوران حول مذهبين؛ مذهب يعتد بقوة الرصف وفخامته وجزالته ، وهو مذهب جمهور الشعراء في المدائح الرسمية ، منذ بشار ومعاصريه ، وهم الذين استثمروا ماوجدوه عند القدماء من تشبيهات واستعارات وكنايات وجناسات ومقابلات،حتى إذا ظهر مسلم بن الوليد جعل كل هذا جزءا لا يتجزء من جوهر الشعر و أطلق عليه لأول مرة " البديع "[60] .

ـ ومذهب يرى أصحابه ،ومنهم أبو العتاهية ،ضرورة اقتراب الشعر من لغة عامة الناس ،حتى يمس جميع القلوب ،يقول أبو العتاهية :"الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس ،مثل شِعْري ، ولا سيما الأشعار التي في الزهد فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الأشعار ولا طلاب الغريب. وهو مذهب، أَسْبَغُ الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء والعامة، وأعْجَبُ الأشياء إليهم ما فهموه[61] "

ـ ولم يكن الشعراء والكتاب وحدهم الذين يدرسون وجوه البيان والبلاغة فيما ينظمون ويؤلفون ، لكن كان إلى جانبهم طائفة اللغويين والنحويين وقد كانت عنايتهم منصبة على استنباط أصول اللغة العربية من حيث الاشتقاق والنحو ، إضافة إلى ذلك ، كانوا يهتمون بتلقين الناشئة شيئا غير قليل من البيان، يأتي ذلك في الغالب في معرض شرحهم لقواعد اللغة والنحو ، ومن ذلك قول ابن المعتز متحدثا عن الخليل بن أحمد ورأيه في التجنيس ، يقول:"قال الخليل: الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو،ومنه ما تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها "[62] ،ويقول عن رأيه في المطابق" قال الخليل-رحمه الله- يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد" [63]، وهذه من بدايات الملاحظات البلاغية من خلال دراسة القواعد اللغوية.

ـ ومن يعد ،إلى كتاب سيبويه الذي يقال إنه أخذ مادته من إملاءات الخليل، فإنه يجد تناوله لبعض القضايا الأسلوبية التي اهتم بها، فيما بعدُ، علم المعاني، من مثل التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف، ويجد أيضا أنه يُعنى بين الحين

والآخـــر ببعض مسائل البيان[64] ، وكذلك نجد عن الفراء المتوفى سنة 207هـ ، فـــي كـــتابه " معاني القرآن"، أنه عني فيه بشرح بعض آيات القرآن شرحا ، تحدث فـــيه عـــن التراكيـــب وتـــأويل العبارات وعن التقديم والتأخير والإيجاز والإطناب ومعانـــي بعـــض الأدوات اللغوية كالاستفهام وغيرها، كما أشار إلى بعض الصور البيانية من مثل التشبيه والاستعارة والكناية . ونجد أيضا أبا عبيدة معمر بن المثنى (تـــ208) فـــي كتابه المشهور " مجاز القرآن" ، نجد أنه يذكر المجاز ، بل يُفْهَمُ ذلـــك مـــن العنوان نفسه ، لكن في حقيقة الأمر ، فإن كلمة المجاز عنده تعني دقة الدلالة للتعابير القرآنية المختلفة، وممن تنبه إلى ذلك من القدماء ابن تيمية، إذ يقول :" أول من عُرف أنه تكلم بلفظ المجاز، أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه ، ولكن لم يعْن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، إنما عنى بمجاز الآية ما يُعبر به عن الآية "[65] وبمعـــنى آخـــر ، عنى به تفسير الآيات وتأويلها .ويبين هذا المعنى منذ فاتحة كـــتابه ، حيث يقول :" قال الله عز ثناؤه :﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ ومجازه : فإذا ألفـــناه شيئا ، فضممناه إليك ، فخذ به وضمه إليك" ، وكذلك فإن أبا عبيدة ربما عُدَّ مـــن الأوائـــل الذيـــن تنبهوا إلى ظاهرة الالتفات، وإن لم يذكر المصطلح كما هو معـــروف عند البلاغيين ، يقول :" ومن مجاز ما جاءت مخاطبته ، مخاطبة الشاهد ثـــم تُـــرك ، وحولت مخاطبته هذه إلى الغائب ، قال الله :﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ أي بكم "[66]

ـ ولـــم يصـــلنا عن الأصمعي مؤلف في البلاغة ، لكن من جاء بعده أشار إلى أنه ألـــف في التجنيس ، يقول ابن المعتز " التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ، مجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل التي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها "[67] ويبدو أن أول من أقترح اسم المطابقة هو الأصمعي ، يقول ابن رشيق :" ذكر الأصمعي المطابقة في الشعر، فقال : أصلها ، وضـــع الـــرَّجل فـــي موضع اليد في مشي ذوات الأربع.." [68] وربما عد أول من أقـــترح مصطلح الالتفات في البلاغة ، ثم جعله ابن المعتز نوعين ؛ نوع ينصرف فـــيه المـــتكلم عـــن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن نوع الإخبار إلى المخاطبة ، وما يـــندرج فـــي هذا الإطار وهذا ما يصدق على الالتفات . ونوع ينصرف فيه المتكلم مـــن معـــنى كان بصدد التكلم فيه إلى معنى آخر [69] . وكذلك ربما عد الأصمعي أيضـــا أول من اهتدى إلى ما يسمى بـــ"الإيغال " وإن لم يذكر المصطلح صراحة ،

يقول التوزي :" قلت للأصمعي : من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتي بالمعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا، أو الكبير فيجعله بلفظه خسيسا ، أو ينقضي كلامه قبل القافية ، فإذا أحتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت : نحو من ؟ قال : قال : قول ذي الرمة ، حيث يقول:

قف العيس في أطلال مية فاسأل رسوما كأخلاق الرداء المسلسل .[70]

ضفتم كلامه بالرداء قبل " المسلسل ثم قال " المسلسل" فزاد شيئا بالمسلسل [71] ويبدو أن الأصمعي ، إنما يقصد من صدر كلامه للتوزي ، إلى ما أسماه ابن المعتز الإفراط ، في الصفة [72] وسماه فيما بعد قدامة المبالغة [73] .

وإلى جانب اللغويين كانت طائفة المتكلمين والمعتزلة ؛ الذين كانوا يتوسلون الأساليب البليغة المختلفة لرد بعضهمْ حجج بعض ، ونلاحظ منذ أول وهلة، أن المعتزلة مثلا، كانوا يطلبون معرفة ما عند الأمم الأجنبية من الآراء البلاغية، ومن ذلك ما أورده إلينا الجاحظ سائقا لطائفة من تعاريف تلك الأمم ، يقول : " قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل ، وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام " واختيار الكلام .وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة ، وقيل للهندي : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة[74] . ويلاحظ أن المعتزلة ، ما طلبوا آراء الأمم الأجنبية ، في البلاغة والبيان ، حبا في تمثلها واعتناقها ، لكن يبدو أنهم يريدون أن يقارنوا بين آرائهم وآراء الأجانب ، في بلاغة الكلام ، كي يضعوا قواعد سليمة لبلاغتهم ، في الدفاع عن الإسلام أمام أصحاب الديانات الأخرى ، ولا شك أنهم يعرفون ما قد يقعون فيه من الأخطاء ، إن ألقوا بأنفسهم وعقولهم في أحضان البلاغات الأجنبية ، وبهذا يتبين لنا حذر الجاحظ أثناء عرضه أطراف الحديث من آراء الأجانب في البلاغة ، إذ لا يتردد أبدا في إلقائها في سيول من أراء العرب البلاغية وقوانينهم البيانية ، إضافة إلى بعض ملاحظات معاصريه وخاصة المعتزلة ، وبهذه المناسبة لا يفوتني أن أسوق، نقلا عن الجاحظ في بيانه ، تعريف العتابي [75] للبليغ، حيث يقول لما سأله بعض معاصريه " كل من أفهمك حاجتك من غير إعادة ولا حبسة ولا أستعانة ، فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة ويفوق كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق .

وقـــال له الســـائل: قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الإستعانة ؟ قال : أما تـــراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هناه ، ويا هذا ويا هيه ، وأسمع مني ، واســـتمع إلي وأفهم عني ، أو لست تفهم ، أو لست تعقل، فهذا كله زوما أشبه عَيٌّ وفساد "[76] .

وهكـــذا فـــإن من يمعن النظر في ملاحظات القدامى حول معاني الشعر والنـــثر وتراكيـــبهما، لا محالـــة ، يخلص إلى أنها كان الأصل في نشوء البلاغة العربية التي نمت فيما بعد وتفرعت وأتت أكلها .

1- الرحمان ،1
2- الأحزاب.19
3- الزخرف58
4- ينظر: تفسير الزمخشري في سورة المدثر،و الطلاوة: الرونق و الجمال و المغدق: كثير المياه.
5- الجاحظ، البيان و التبيين، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، ج1/ص222/
6- نفسه : ج1/ص349
7- نفسه: ج2/ص9.
8- العنقاء: ثعلبة بن عمر،و مزيقياء: أحد أجداد الأزد القدامى في اليمن،ومعروف أن الخزرج قبيلة حسان أزدية.
9- ويريد بالمحرق: جبلة بن الحارث أمير الغساسنة في الشام، لأوائل القرن السادس،و هم أيضا من الأزد.
10- الأغاني " دار الكتب"، 340/9 .
11- نفسه : 9/8 *
12- البيان و التبيين،13/2
13- الأغاني، 165/2
14- ثوى،و فوز: هلك، و جرول: هو الحطيئة
15- تنخلُ: انتخبُ و اخترُ
16- نثقفها: نقومها
17- الجاحظ: البيان و التبيين، 17/2
18- الجاحظ، الحيوان (طبعة الحلى) 335/1
19- الجاحظ، البيان و التبيين 261/1
20- نفسه:65/2
21- هو (عامر بن شراحيل) ت 103هـ ، نسبة إلى شعب بطن همدان، تابعي،محدث، رواية حافظ ثقة ، ولد في الكوفة، اتصل بعيدا لملك بن مروان، وكان نديمه و سميره ورسوله إلى ملك الروم، أخذ عنه الإمام أبو حنيفة.
22- الجاحظ، البيان و التبيين،65/2
23- نفسه: 394/1، 228/2
24- نفسه،58/1
25- نفسه:14/1
26- نفسه: 118/1
27- نفسه:379/1
28- شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ص 16 .
29- أبو الفرج الاصفهاني ، الأغاني ، 152/10 .

30- انى : وقت ، ضحاء الإبل : مرعاها في الضحى ، تفرس : تحطم ، الخرشاء: جلد الحيات .

31- أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني .70/8.

32- رسيس الهوى : ابتداؤه .

33- أبو الفرج ، الأغاني ، 118/16. والمرزوباني، الموشح : ص 179.

34- الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة في الأسنان.

35- اللمى : سمرة في الشفة ، الحوة : حمرة في الشفتين تضرب إلى السواد ، اللعس : سواد في الشفة مستحب

36- أبو الفرج الاصفهاني ، الأغاني ، 348/1.

37- الجاحظ ، البيان والتبيين 205/1 وما بعدها .

38- الصناعتين : ص98.

39- شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ص19.18 .وقدامة ، نقد الشعر ، ص 111 .

40- نفسه : ص19.

41- شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ص21.

42- ابن المعتز ، كتاب البديع ، ص47، نشر كراتشفسي .

43- الجاحظ ، البيان والتبيين ، 137/1.

44- الجاحظ ،البيان والتبيين ، ج4، ص 24 ، والعمدة 84/2.

45- الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص104، طبعة الجلي .

46- الجاحظ ، البيان والتبيين ، 105/1.

47- الجاحظ ، البيان والتبيين ، 106/1.

48- شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص 23- 24 .

49- العناب : عنب الذئب ، الحشف : أسوأ التمر .

50- أبو الفرج الاصفهاني ، الأغاني ، 196/3.

51- شوقي ضيف ، البلاغة،تطور وتاريخ ، ص 25.

52- دعجاء : من الدعج وهو سواد العين مع سعتها.

53- أبو الفرج الاصبهاني ، الأغاني ، 154/3، والصناعتين ، ص 213.

54- الصبوح : كل ما أكل أو شرب صباحا ، ما حلب من اللبن في الغداة .

55- عاصـــي : غالب ، مفند :هنا : ملوم .العزيمة : العقد على فعل شيء ، الإدارة المؤكدة .التجلد : تكلف القوة والصبر.

56- ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 781.

57- المرمريس: الداهية .

58- أبو الفرج الاصبهاني ، الأغاني ، 90/4.

59- أبو الفرج الاصبهاني /الأغاني ،27/4، والرهج :غبار الحرب .

60- مسلم بن الوليد ، ديوانه ، ص 364.

61- أبو الفرج الاصبهاني ، الأغاني .70/4.

62- ابن المعتز ، البديع ، ص25.
63- نفسه ، ص 36.
64- شوقي ضيف ، البلاغة ، تطور وتاريخ ص 29.
65- ابن تميمة ، الإيمان ، ص 35.
66- أبو عبيدة ، مجاز القران ، ص 11، تحقيق محمد سركين ، نشر الخانجي ، القاهرة .
67- ابن المعتز ، كتاب البديع ، ص25.
68- ابن رشيق ، العمدة ، 7/2.
69- ابن المعتز ، كتاب البديع ، ص 58.
70- الرداء الخلق : الرداء البالي ، الرداء المسلسل : الرديء النسج .
71- الصناعتين : ص 370.
72- ابن المعتز ، البديع : ص65.
73- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص 77.
74- الجاحظ البيان والتبيين ، 88/1.
75- تنظر ترجمة العتابي في الأغاني ، 110/13 ، وفي معجم الأدباء 26/17.
76- الجاحظ ، البيان والتبيين /113/1.